الاكتساب اللغوي والإعلام

د. عبد المجيد عيساني
جامعة ورقلة- الجزائر

إنّ اللغة كالكائن الحي, الأصل فيها التطوّر بحكم أنها كائن اجتماعي، وأنها لصيقة بحياة المجتمعات تعكس صورته قوة وضعفا, وأساس هذا التطور هو وجودها الدائم والحيوي المتفاعل مع حياة الناس، ثم النماء المستمر بنمو المجتمعات. وللغة أركان ووسائل تتعلق بتا وتنتشر وفقها, وكلما قويت تلك الوسائل, قويت اللغة بالضرورة, والعكس صحيح. ومن أكثر الوسائل فعالية في المجتمع وسيلة الإعلام على أنواعه, لارتباطه بالمجتمع ارتباطا وثيقا. وبما أن اللغة والإعلام طرفان متداخلان, فلا مناص من التأثير والتأثر لأحدهما على الآخر. وتؤدي الصحافة العمومية على أنواعها دورا بالغ الأهمية في تحريك المستوى اللغوي في المجتمع, فهي تعمل على ترسيخ العادات اللغوية مهما كان منحاها وتوجهها. ولا شك أن تأثير الإعلام بوسائله المختلفة السمعية منها والبصرية, وكذا المكتوبة على تخصصاتها المتباينة, يفوق بشكل كبير جدا تأثير التعليم في الفرد والمجتمع, وذلك بناء على أن الإعلام يحتل نطاقا واسعا, ويصل إلى جميع فئات المجتمع, ويتلقاه الإنسان بوعي أو دون وعي, خصوصا السمعي والسمعي البصري. إن لغة الإعلام في عصر العولمة لا تستقر على حال، فهي في تطور مطرد، لا يكون دائماً في خدمة اللغة. ولكنا لا نملك أن نعزل أنفسنا عن تيار العولمة، أو ننأى بلغتنا عن. ومهما كان حكمنا على العولمة، ومهما يكن رأينا فيها، فإنها تتيح فرصاً كثيرة لكل من يرغب في تطوير لغته، حيث تقدم الصحون اللاقطة والأنترنيت والبريد الإلكتروني والحاسوب، كل ما يستلزم من عمليات الإحصاء والترتيب والتخزين والاسترجاع والتصحيح، والمستقبل مفتوح لما لا يخطر على البال.1 خلافا للتعليم اللغوي المنظم الذي يقل تأثيره بكثير عن ذلك. ولا ريب أن الاستماع إلى الإذاعات, والمكوث أمام القنوات التلفزيونية والفضائيات بمختلف أنواعها وأشكالها, يترك آثاره العميقة في ملكات الصغار خصوصا والكبار عموما, ويؤثر على لغتهم ومشاعرهم وأفكارهم. وإذا كنا لا نستطيع التحكم في القنوات الفضائية عموما, وأقل منه في القنوات الوطنية, لأنه يتطلب اتفاقا عربيا والتزاما أخلاقيا, وليس ذلك بالأمر السهل في وقتنا الراهن, خصوصا إذا تذكرنا بأن تزايد نفوذ الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، يشكل عاملاً مساعداً لذيوع اللغة العربية وسعة انتشارها ووصولها إلى آفاق بعيدة، تتخطى رقعة الوطن العربي إلى العالم الإسلامي، وإلى مناطق شتى من العالم، خصوصاً وأن الإعلام المرئي يلعب دوراً بالغ التأثير في تبليغ الرسالة الإعلامية إلى العالم أجمع. وبذلك اتسعت الساحة أمام الضاد على نحو لا عهد لها به من قبل. وفي هذا الامتداد للغة العربية تجديدٌ لها، على نحو من الأنحاء، وتبديدٌ للوهم الذي ساد في فترات سابقة، بأن الضاد لم يعد لها مكان في هذا العصر.

ولما كانت قوة اللغة تستمدها من قوة أهلها، لأن اللغة تقوى وتزدهر وتنتشر، بقدر ما تتقوّى الأمة التي تنتسب إليها وتترقى في مدارج التقدم الثقافي والأدبي والعلمي والازدهار الاجتماعي والسياسي والحضاري، فإن الوضع الذي تعيشه الأمة العربية الإسلامية في هذه المرحلة من التاريخ، لا يوفر للغة العربية حظوظاً أكبر للبروز وامتلاك شروط القوة والتقدم، مما يترتب عليه ضعف اللغة وعدم قدرتها على فرض الوجود والتحكم في توجّهات الإعلام، والخروج من دائرة سيطرة نفوذه، والفكاك من هيمنة وسائله المتعددة، بحيث تصير اللغة تابعة للإعلام، متجاوزةً بذلك الفواصل بين الإصلاح والإفساد, لذلك فإن التحكم في الصحافة المدرسية – إن وجدت في المؤسسات التربوية- ينبغي أن تؤدي دورها الحيوي في حياة الأطفال في مراحلهم الأولى للاكتساب اللغوي الصحيح. وبالرغم من "إن العلاقة بين اللغة والإعلام لا تسير دائماً في خطوط متوازية؛ فالطرفان

لا يتبادلان التأثير، نظراً إلى انعدام التكافؤ بينهما، لأنّ الإعلام هو الطرف الأقوى، ولذلك يكون تأثيره في اللغة بالغ الدرجة التي تضعف الخصائص المميزة للغة، وتُلحق بها أضراراً تصل أحياناً إلى تشوّهات تفسد جمالها."2 ونظرا لهذه القوة الهائلة في الصحافة عموما ولكي لا تلحق باللغة ضررا يصعب التغلب عليه مستقبلا, فإنه ينبغي الالتفات إلى الصحافة المدرسية لتحقيق نوع من البديل الضعيف أو المنافس على قدر الاستطاعة.

وتعتبر الصحافة المدرسية نشاطا حرا يقوم بتنمية الجانب المعرفي للطالب عن طريق تشجيعه على القراءة والإطلاع وجمع المعلومات. كما يعني بالجانب الوجداني وذلك بالكشف عن مواهبه وقدراته الفنية والأسلوبية وتنمية الجانب الابتكاري لديه.3 ومثل هذه الأهداف خصوصا في المراحل التعليمية الأولى هو ما نهدف إليه في حياة التلميذ, فإذا استطاع التلميذ من خلال هذه الوسيلة الهامة أن يقرأ ويطالع ما استطاع مطالعته, وأن يكشف عن قدراته ومواهبه, وأن يتذوق الأساليب وأن يميز بين صيغة وصيغة في أسلوبين مختلفين, فإن ذلك سييسر عليه تعلم الأساليب الراقية التي تعينه على تفهم قضايا اللغة وفنونها. ومثل هذه الوسيلة تعلم التلميذ أن يكتسب اللغة الصحيحة اكتسابا ذاتيا, وأن يبدع لنفسه من خلال الحرية التي تمنح له في التعبير عن ذاته ومشاعره, ومن خلال مطالعاته المختلفة والبحث عن المعلومة ومحاولة تصحيح أخطائه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهذه الحركية عند التلميذ والبحث المستمر في حياته, شيء أساسي مطلوب في التعلم الذي لا ينبغي أن يجد فيه التلميذ كل شيء جاهزا, لأن ذلك يعلم التلميذ روح الاتكالية, بدلا من دفعه للبحث الذي يبعث فيه روح الكد والاجتهاد المستمر.

والصحافة المدرسية بهذا الشكل نعدها جزءا من العملية التعليمية, مما ينبغي برمجتها وإيلاؤها العناية التي تولى لمختلف الوسائل الأخرى. فإذا كانت المواد المعرفية الأخرى المبرمجة للتلميذ تمنحه المعارف, فإن الصحافة ينبغي أن تمنحه أو أن يتعلم من خلالها القدرة على التعبير بالكيفيات اللغوية السليمة عن تلك المعارف المتنوعة, وذلك تحت رقابة المتخصصين وأهل الميدان. وهي بهذا العموم ليست مقصورة على جانب دون آخر, بل ينبغي أن تكون متنوعة, بين مكتوبة ومسموعة ومنظورة. لأن هذا التنوع يتيح الفرصة لجميع التلاميذ ويمكنهم من المشاركة الجماعية والنوعية دون إقصاء, ومن جهة أخرى فإن تنوعها يجعلها متوفرة في جميع المؤسسات التربوية دون تمييز. فالذين لا يوفرون الوسائل السمعية البصرية مثلا, يكتفون بالسمعية وحدها أو المكتوبة, فإن في ذلك تحقيقا لبعض الأهداف المرسومة التي نقصد إليها.

ولغة الصحافة المدرسية ينبغي أن تكون في مستوى التلاميذ أو الطلاب الذين ينجزونها دون تكلف. فهي لغة بسيطة واضحة, بعيدة عن الغموض والتعقيد ولكنها فصيحة. فهي ليست لغة الأدباء والشعراء, ولكنها في آن واحد ليست لغة العوام والحديث الدارج. لأن الهدف منها هو تعلم الأساليب الفصيحة الصحيحة الخالية من الآفات. وليس في حرصنا على الالتزام بهذه المنهجية, أي ضرورة الالتزام بالفصحى, حجرٌ على الفكر اللغوي، أو ضربٌ من التعصب والانغلاق والانطواء على الذات، وإنما هو الانضباط الذي يقتضيه تعاملنا مع هذه القضية، والاحتياط الذي يستوجبه قيامنا بواجبنا تجاه لغتنا التي ظلت تصارع قرونا من الزمن ومازالت.

فإذا كان هذا هو دور الصحافة المدرسية, فإن الصحافة العربية العمومية وإن كانت قد حققت كثيرا من الإيجابيات التي لا يمكن نكرانها, إلا أنها لم ترق بعد إلى المستوى الذي نتطلع إليه بوصفها أكثر الوسائل فعالية وتأثيرا في المجتمع. ويذكر البعض أن الصحافة عملت من خلال استعمالها اللغة العربية الفصيحة بعدة طرق ومناهج, مكنتها من إيجاد قوالب للمعاني والأفكار والمفاهيم المختلفة التي نود التعبير عنها. ويذكر الكثير من ذلك ما استطاعت الصحافة ترسيخه في الأذهان مما يحتاج إليه التلميذ والفرد عموما في حياته. من ذلك استعمال مفردات عن معان جديدة مقاربة للمعاني القديمة مثل: بريد, جريدة, سائق, مجلة, مظاهرة, إضراب. واشتقاق صيغ جديدة من

أصول عربية للدلالة على معان مستحدثة مثل: صحافة, طباعة, مصنع, متجر, مطار, محطة...وتعريب ألفاظ أجنبية بما يتفق وصيغ اللغة وأصواتها إذا لم تكن في اللغة العربية مثل: برلمان, تلفزيون, دينامية, فيلم, سينما...الخ.4 وكل هذه المجهودات والإيجابيات مما يسهم في مساعدة الدارس على الالتزام باللسان الفصح دون تعثر, لأنه يكون قد تعود ذلك عن طريق الصحافة المتعددة الأنواع. إلا أنه ومع ذلك لم ترق بعد الصحافة العمومية في البلاد العربية من خلال قنواتها المختلفة إلى المستوى المطلوب الذي ننشده, ويتمثل هذا التدني في مظاهر عديدة مما تبثه الصحافة العامة والمسموعة منها خصوصا في: كثرة الأخطاء النحوية والأسلوبية الشائعة لدى الصحفيين, وعدم مراقبة النصوص قبل بثها أو نشرها مكتوبة مما يجعلها غير بناءة. واعتماد بث حصص باللسان الدارج العامي دون ضرورة في الحين الذي لو يلتزم فيه المقدم باللسان الفصيح ما ضر ذلك شيئا. وعدم الاهتمام بالقدر المطلوب بتخصيص حصص للأطفال بغرض ترسيخ الأساليب اللغوية الصحيحة عن طريق مختلف الحصص الممكنة (رسوم, مناهج تعليمية, أفلام...الخ). وتأليف أغاني وتمثيليات وقصص مسموعة أو مرئية. كل هذا لو وضع في الحسبان خصوصا في الإذاعة المرئية التي تشد الأطفال ببرامجها بغرابة فائقة, فإنها بذلك تستطيع أن تساعد في تثبيت المعلومات وتعليم التلاميذ الأساليب الفصيحة. "لقد كان الغيورون على لغة الضاد عند ظهور الصحافة في البلاد العربية في القرن التاسع عشر، يحذرون من انحدار اللغة إلى مستويات متدنية، فتعالت صيحات الكتاب والأدباء في غير ما قطر عربي، داعية إلى الحرص على صحة اللغة وسلامتها، وظهرت عدة كتب تعنى بما اصطلح عليه بلغة الجرائد؛ تصحح الخطأ، وتقوّم المعوج من أساليب الكتابة، وتردّ الاعتبار إلى اللغة العربية. وقد أفلحت الجهود التي بذلها أساطين اللغة والرواد الأُول الحريصون على سلامة اللغة السائدة في الصحافة، أو (اللغة السيَّارة)، قياساً على قولنا (الصحف السيَّارة)."5

ولا يتطلب أمر كهذا إلا قرارات سياسية محكمة, وإخلاصا في تنفيذها بعد تحديد السياسة اللغوية للبلاد العربية, إن أرادت أن يكون للسانها العربي مكانة بين الشعوب المتعددة الألسن. وليس في الأمر هذا أو في وضع هذه الملتزمات بدعا عند العرب, ففي قنوات عربية في غير البلدان العربية تندهش عندما تشاهد وتسمع لمستشرق يتقن فنون وأساليب اللسان العربي, ويتراجع دونما حرج ليصحح عندما يزل لسانه عفوا, مما يبين أنهم ملتزمون باللسان الفصيح, وأنهم مدركون لما يفعلون عندما يعودون للصواب إذا ما أخطئوا, بغض النظر عن المقاصد والأهداف التي يقصدونها. ولم تعرف اللغة العربية عبر تاريخها الطويل ما تعرفه اليوم من سرعة في النموّ، واندفاع في التطوّر ومسايرة المتغيرات، بحكم عوامل كثيرة ونتيجة لأسباب متعددة، لعلَّ أقواها تأثيراً، النفوذ الواسع الذي تمتلكه وتمارسه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، والذي يبلغ الدرجة العليا من التأثير على المجتمع، في قيمه ومبادئه، وفي نظمه وسلوكياته، وفي ثقافته ولغته، وعلى النحو الذي يفقد بعض المجتمعات هويتها الحضارية، وينال من خصوصياتها الثقافية، وفي المقدمة منها الخصوصية اللغوية.6 وبحكم التوسّع في وسائل الإعلام وتعدّد قنواته ومنابره ووسائطه، ونظراً إلى التأثير العميق والبالغ الذي يمارسه الإعلام في اللغة، وفي الحياة والمجتمع بصورة عامة، فإن العلاقة بين اللغة العربية والإعلام أضحت تشكل ظاهرة لغوية جديرة بالتأمل، وهي ذات مظهرين يمثلان ازدواجية قائمة على التنافر:

أولهما أن اللغة العربية انتشرت وتوسَّع نطاق امتدادها وإشعاعها إلى أبعد المدى، وأصبحت لغة مطلوبة في جميع دول العالم وفي مختلف القارات العالمية, وفي مختلف الهيئات الدولية, بحيث يمكن القول اليوم إن العربية لم تعرف هذا الانتشار والذيوع في أي مرحلة من التاريخ. وهذا مظهر إيجابي، باعتبار أن مكانة اللغة العربية قد تعززت كما لم يسبق من قبل، وأن الإقبال عليها زاد بدرجات فائقة، وأنها أصبحت لغة عالمية بالمعنى الواسع للكلمة. ويعود هذا الأمر لعدة عوامل أساسية وواقعية. ففي كل دولة كان لانتشار الإسلام فيها حظ كبير, انتشرت فيها اللغة العربية انتشارا

واسعا. وهذا مفتي الإسلام في يوغسلافيا الشيخ حمدي يوسف شباهيتش يتحدث عن العربية الفصحى يقول:«يكفي أن أذكر لكم أننا شيدنا في مختلف أنحاء يوغسلافيا أكثر من ستمائة مسجد جديد منذ 1960 حتى اليوم, هذا عدا المساجد التي تم ترميمها وتشييدها. .. ويزيد عددها على الألفي مسجد, وفي كل مسجد منها مدرسة أو كتاب لتعليم القرآن الكريم باللغة العربية, ومن هنا تبرز الحاجة الملحة إلى نشر لغة القرآن الكريم في هذه الربوع»1 ويزداد اليوم الإقبال أكثر مما كان عليه الحال في السابق, وما يقال عن يوغسلافيا يقال عن بقية البلدان الأخرى التي انتشر فيها الإسلام عبر بقاع العالم, ففي السنغال يقول أحد شيوخ الإسلام بأن المسلمين هناك بالسنغال تواقون إلى اللغة العربية, بالرغم مما فعله الاستعمار من محاولة التفريق بينهم وبين العربية 2 وذلك في جميع البلدان التي احتلها الاستعمار عربية كانت أو غير عربية. وقد كتبت كثير من الشعوب غير العربية لغاتها المحلية بالحرف العربي, كالفارسية والأوربية والتركية والأفغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والملايو والساحلية وغيرها.3 كل هذه الدول إنما تتمسك باللغة العربية لسبب ديني، وهي أنها لغة القرآن الكريم الذي يقرءونه ويتمسكون به، لأنه دستور الإسلام الذي آمنوا به وتعلقوا بتعاليمه. ومن يزور بلدانا أوروبية كثيرة كألمانيا وغيرها يلاحظ الاهتمام في قسم الدراسات الشرقية بجامعاتها منصبة فيها على اللغة العربية. ولك أن تبحث عن الأسباب التي تجعل من ألمانيا غير العربية وغير المسلمة وغيرها من دول أوروبية أخرى تهتم هذا الاهتمام باللسان العربي, سواء أكان هذا الاهتمام رغبة منها في ذلك, أو بدافع من الدوافع الخفية التي يسعون إليها, إنه في كلتا الحالتين لا يكون هذا الاهتمام إلا لمكانة هذا اللسان العربي عالميا, وللأهمية البالغة التي يحتلها في القلوب, أو لخوف البعض من قوته التي تمنح المتمسك به قوة وصلابة في جوانب شخصية, وتكسبه المناعة من الآفات الغازية. ولهذا السبب ذاته برزت شخصيات أدبية معروفة على الساحة الأدبية واللغوية والتي تجندت للدفاع عن الفصحى, وما قدمه الأديب مصطفى صادق الرافعي الذي خص كتابه "تحت راية القرآن" لهذا الغرض إلا شاهد على ذلك. ويربط الكاتب ردوده القوية على دعاة العامية عموما انطلاقا من النظرة الدينية والعقائدية, حاسبا أن المساس باللغة بالضرورة مساس بالقرآن الكريم, لأن الفصحى هي الإطار اللغوي لهذا الذكر الحكيم, ولذلك يذهب إلى اتهام دعاة العامية وبوضوح لا غبار عليه بأن عملهم على المستوى اللغوي إنما هو تمويه فحسب, قصد المساس بالدين وبالقرآن قائلا: « وليس يقول هذا (قاصدا الدعوة إلى العامية) إلا طنين قد انطوى صدره على غل واجتمع قلبه على دخلة مكروهة وإلا جاهل من طراز أولئك, لا يستطيل بتجربة ولا ينفذ بعلم ... »[7] فهذه الأصناف – عند الرافعي- بأوصافها تلك (الحقد- النية السيئة- الجهل) هي التي تمثل طبقات أعداء اللسان الفصيح, ويذهب إلى الربط الواضح بين محاربة اللغة ومحاربة الدين, ولا فرق عنده بينهما, فمن وجدته يبطن حقدا لهذا الدين فهو بالضرورة يبطن ذلك الحقد للغة عندما يقول: «ولن تجد ذا دخلة خفية لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة »[8] وسبب ذلك بالتأكيد هو استحالة الفصل بينهما, فالقرآن روح وإطاره اللغة, وهو متن وتنزيل وأسلوبه العربية الفصيحة, وكما لا يمكن بحال الفصل بين الروح والجسد إلا بعد الموت, فكذلك الحال بين القرآن ولغته, والمحافظة على معاني هذا القرآن هو بالضرورة محافظة على لغته, لذلك فمحاربة لغته لا تعني عند الرافعي إلا محاربة القرآن بطريق مموه وغير مباشر.

- والطرف الثاني لهذه الازدواجية وهو من الظواهر السلبية المتمثِّلة في شيوع الخطأ في اللغة، وفشوّ اللحن على ألسنة الناطقين بها، والتداول لكثير من الأساليب والتراكيب والصيغ التي لا تمتّ بصلة إلى الفصحى، وتفرض نفسها على الحياة الثقافية والأدبية والإعلامية، وتصبح مألوفة لدى المتخاطبين, وتأخذ بها الأجيال ويُنسج على منوالها، على حساب الفصحى التي تختفي وتتراجع وتنعزل إلاّ في حالات استثنائية. وهذا مظهر خطير على خصائص اللسان العربي الذي يتميز بجملة من السمات ينفرد بها كغيره من أي لغة أخرى.

وإذا تتبعنا الوضع اللغوي لهذه الظاهرة، لا نشك مطلقا بأن اللغة العربية تعاني في هذه المرحلة من حصار مرير يُلحق الأضرار بالبيئة اللغوية، ويفسد الفكر، ويشيع ضروباً من

الاضطراب والإرباك والقلق في العقول، فضلا على ما يسبّبه هذا الوضع اللغوي غير المستقر، من فساد في الحياة العقلية للأمة، تنتقل عدواه إلى فساد في معظم المجالات، فتختلط المعاني والدلالات والمفاهيم والرموز في لغة الحوار بين الطبقات المثقفة على أنواعها، وبين قيادات المجتمع على أنواعها كذلك، فيؤدي ذلك إلى الغموض والالتباس والتداخل في مدلولات الكلمات، مما ينشأ عنه حالة من الفوضى اللغوية التي إن عمّت وانتشرت، أفضت إلى فوضى عارمة في الحياة الفكرية والثقافية، وإلى ما هو أعظم خطراً من ذلك كله. وهذا ما يشيع اليوم في كثير من البلدان, باعتبار أن اللغة مظهر للفكر ليس إلا. وصدق الشاعر العربي في تعبيره عن هذا المفهوم, قائلا:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

إن هذه الإشارات وهذا التشخيص للعلاقة القائمة بالضرورة بين اللغة والإعلام يمكننا من أن نقف على حقيقة الوضع العام الذي تعرفه اللغة العربية اليوم، في هذه المرحلة الحافلة بالمتغيرات الإقليمية والدولية الحاسمة. وليس من المبالغة في شيء، في ضوء ذلك، إذا قلنا بأن هذا الوضع خطير بكل المقاييس العلمية والأدبية وبالمعاني كلها، ومن عدة وجوه، ولكن هذه الخطورة لا تمنع من معالجة الخلل وتطهير البيئة اللغوية من الآفات، وإفساح المجال أمام تنمية لغوية يُعاد فيها الاعتبار إلى الفصحى، وتستقيم فيها حال اللغة، بحيث تقوم العلاقة بينها وبين الإعلام على أساس سليم، وقواعد منسجمة فيتبادلان التأثير في اعتدال وفي حدود معقولة، فلا يطغى طرف على آخر، بحيث تبقى اللغة محتفظة بشخصيتها، ويظل الإعلام يؤدي وظيفته في التوجيه والتعليم والتثقيف والترفيه النظيف، فيتكامل الطرفان وينسجمان، فتصبح اللغة في خدمة الإعلام، ويصبح الإعلام داعماً لمركز اللغة. وبالرغم من كل هذه المثالب الضارة التي تحيط اليوم باللغة, فإن التقويم والإصلاح والإشادة والبناء ليس عديم المنال, مع الإقرار بصعوبة المهمة وطول الزمن, فلا ينبغي أن نيأس من إصلاح اللغة العربية في المدى المتوسط، فلقد تحقق اليوم الاتساع اللغوي، نتيجة لاتساع رقعة الإعلام وتأثيره في المجتمعات، ولانتشار اللغة العربية بوضعها الحالي على نطاق واسع، وهو الأمر الذي يخدم أحد أغراض التنمية اللغوية بالمعنى الشامل للتنمية المعتمد في الخطاب المعاصر. لأن التضخم هنا توسيع لنطاق استخدام اللغة، وغناء لمضامينها ومعانيها، وتلك غاية سامية من الغايات التي تهدف إليها التنمية اللغوية.

وكما قال العارفون مثلما أن للتنمية من حيث هي، سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية، قواعد وضوابط ومعايير وأهداف مرسومة، فكذلك هي التنمية اللغوية التي لن يتحقق الغرض منها ما لم تتوافر لها الشروط الموضوعية, ويأتي في مقدمة هذه الشروط التي إن انتفى شرط واحد منها، فقدت التنمية اللغوية الهدف المتوخى منها، وهي ثلاثة شروط:

أولاً: أن تلتزم اللغة القواعد والأبنية والتراكيب والمقاييس المعتمدة والتي بها تكتسب الصحة والسلامة، دون تزمت، ولا تقعر، ولا ميلا إلى الشاذ الغريب, ولا انغلاق في الدوائر الضيقة، حيث ينبغي مراعاة المرونة والتكيّف مع المستجدات التعبيرية، ولكنها تحافظ على طبيعتها وأصالتها ونضارتها. وفي اللسان العربي سعة لتجسيد هذه المهمة.

ثانياً: أن تفي اللغة بحاجات المجتمع، وأن ترتقي إلى المستويات الرفيعة لشتى ألوان التعبير، بحيث تكون لغة متطورة، مسايرة لعصرها، مندمجة في محيطها، معبرة عن ثقافة المجتمع ونهضته وتطوره، مواكبة لأحواله، مترجمة لأشواقه وآماله.

ثالثاً : أن يُحتفظ بمساحات معقولة بين لغة الخطاب اليومي عبر وسائل الإعلام جميعاً، وبين لغة الفكر والأدب والإبداع في مجالاتهما، بحيث يكون هناك دائماً المثل الأعلى في استعمال اللغة، يتطلع

إليه المتحدثون والكتاب على اختلاف طبقاتهم، ويسعون إلى الاقتداء به ويجتهدون للارتفاع إليه، فإذا عدم هذا المثل الراقي حلَّ محله مثل أدنى قيمة وأحط درجة، لا يربي ملكة ولا يصقل موهبة ولا يحافظ على اللغة، إن لم يسيء إليها ويفسدها.

والشرط الثالث وهو من الأهمية بمكان، لأن انتفاء المثل الأعلى في اللغة يؤدي إلى هبوط حادّ في مستوى التعبير الشفهي والكتابي على السواء، ويتسبَّب في شيوع اللهجات العامية التي تنازع الفصحى السيادةَ على الفكر واللسان، لدرجة أنها تصبح مثلاً يحتذى به. وتلك هي الخطورة التي تتهدّد شخصية اللغة العربية في الصميم. وهذه هي النتيجة التي يخشى اللغويون العرب من الوصول إليها، لأنها تمثّل خطراً حقيقياً على الفصحى وعلى ما تمثله من قيم ثقافية رفيعة، هي من الخصوصيات الحضارية للأمة العربية الإسلامية.9 إن للسان العربي مستوياتٍ فليس المطلوب منا مطلقا أن نلتزم أرق مستوى منها, بل إنها لغة تسع مستويات طبقات اجتماعية كثيرةٍ تتفاوت من حيث الأداء والتفكير. والمطلوب هي اللغة الوسطى التي هي أدنى من أسلوب الأدباء والأكاديميين وأعلى مستوى وأرفع مقاماً من اللغة السيَّارة، فهي لغة عربية تحافظ على خصائصها ومميزاتها وتراكيبها وصيغها، ولكنها لغة عربية معاصرة، لأنها تعبر عن روح العصر ومضامينه, بكل ما في العصر من مستجدات وإبداع ودلالات. فاللغة أي لغة كانت تعرف عددا من الوجوه، وتسع مضامينَ شتى العلوم والآداب، إذا عرفت سبيلها إلى أسلوب ميسر مبسط، من شأنه أن يساعدها على انتشارها في جميع الألسنة. ويقترح الأستاذ صالح بلعيد عددا من الخطوات ينبغي أن تتحقق تتمثل في الآتي:

أولاً: ضرورة تفعيل المنظومات التربوية تفعيلاً معاصراً، وذلك بتطوير الخطاب اللغويّ، حتى يلبي كل أنماط الخطاب البسيط العلمي، ويغطي كل أساليب التعبير، ويصاحب هذا بالتجديد في متن اللغة استجابة لملاحقة العصر.

ثانياً: بناء الذخيرة اللغوية، وبنوك المعطيات.

ثالثاً: علاج اللغة علاجاً آلياً، من خلال اعتماد نظم الترجمة الآلية منها وإليها.

رابعاً: إدخال التراث اللغوي العربي في أقراص ممغنطة (7) (.C. D).10

وهي من المقترحات المطلوبة التي تدعم الخطوات المطلوبة لتيسير اللسان العربي, ولكن ما من شك أن دور الإعلام سيكون له النصيب الأوفى لتعزيز عملية الانتشار السليم للغة العربية على كل صعيد, لذلك يتطلب هذا الشرط تعزيز الإعلام العربي بقنوات فضائية تجسد هذه المهمة تجسيدا كليا دون تهاون, وتتعامل مع قضايا المجتمع الحيوية تعاملا طبيعيا, عملا على أن تحظى بالانتشار نفسه الذي للقنوات الفضائية الأخرى.

إن قضيتنا اللغوية العربية ليست قضية تستعصي على الحل, وليست قضية غارقة في الوحل كما قد نتوقعها, بل إن قضيتنا تلتف بها قضايا أخرى بعيدة عن اللغة في حد ذاتها. إن مشاكل لغتنا منها ما هو مفتعل ومنها ما إلى ضعف الهمة وقلة الإرادة, ومنها الخلفيات المشبوهة, وفي الأخير هي أسباب ذاتية، تخلص بنا في الأخير إلى التفريط في القيام بالواجب اتجاه اللغة التي هي لسان الدين وعنوان الهوية ورمز الثقافة والسيادة الحضارية، والتفريط في المسؤوليات التاريخية التي تحفظ التراث وتحمي الوجود المعنوي. "إن اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم، ولا يمكن لأي مجتمع أن ينهض ويتحضر إلا من خلال لغته، ومن ثم لن ينهض العرب إلاَّ بواسطة العربية. وإن معرفة أكثر المشتغلين بالعلوم للغة الإنجليزية لا ترقى إلى مستوى معرفة أهلها أنفسهم، فهم

يستخدمون لغة لا يتقنونها إتقاناً كاملاً، ويهملون لغتهم التي يمكن أن يحققوا بها مستوى أداء أفضل، فيزدادون ضعفاً على ضعف. وإن مستوى الطلاب في الكليات العلمية لما يتلقونه بالإنجليزية أو الفرنسية ضعيف، وهو أضعف قطعاً مما لو تلقوا موادهم بالعربية على أيدي أساتذة يحسنونها."11 إن العيب –كل العيب- في أبناء اللغة وليس في اللغة، وإن التنمية اللغوية مرهونة بالجهد الذي نبذله نحن في الواقع وبين الناس، وفي العزيمة التي نعقدها, لا في القراطيس، وإن الآثار الإيجابية للعلاقة بين اللغة والإعلام، لا يكون لها نفع أو جدوى أو فائدة، ما لم نقم، كل في موقعه ومجال تخصصه، بما يجب أن نقوم به، من العمل النهجي المدروس للحفاظ على صحة اللغة وسلامتها وحسن انتشارها، ولتحقيق المزيد من التنمية اللغوية مستغلين الإمكانات الفنية والتقانية الهائلة التي تتاح لنا اليوم، لتعزيز مكانة لغتنا بالعلم والعمل وتضافر الجهود ووضع الضوابط والتشريعات التي تحول دون انفلات اللغة وتراجعها عن أداء دورها في البناء الحضاري والنماء الاجتماعي.12 إن الحديث وحده في هذا المجال لن يجدي نفعا ما لم تترجم المشاريع الإصلاحية إلى واقع ملموس. فإذا توفرت الرقابة اللغوية لكل المؤسسات العربية, وخصصت فضائيات تجعل رسالتها اللغوية على رأس الأولويات الأخرى, وتدعم الصحافة المدرسية بشت الوسائل الممكنة, وتحدد القوانين الصارمة لضرورة الالتزام بالمبادئ المتفق عليها, وغيرها مما يعزز الفكرة ويدعمها, ففي كل هذه الخطوات تحقيق لشيء واقعي خير من آلاف الخطوات النظرية، وبدونها لاشيء يتحقق، فالعمل بمختلف المقترحات المقدمة وتجسيدها عملا وقعا أولى من أشياء كثيرة, بالرغم من اعتقادنا الجازم بأن الحل لا يكون بين عشية وضحاها، ولكن إدراك القليل جزء من الحل. والزمن جزء من العلاج. ذلك لأن إصلاح العقول والألسنة أصعب ما في الإنسان. ولا تقتضي تلك الصعوبة للقضاء عليها إلا مددا من الوقت، ومزيدا من الجدية في التعامل مع الموضوع، ولا يأس مع الحياة عندما يشعر الباحث بأنه يقدم عملا في خدمة المجتمع مهما كان قليلا، فالعبرة بالاستمرارية، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

الإحـــــالات

[1] - يراجع: تأملات في قضايا معاصرة، عبد العزيز بن عثمان التويجري, دار الشروق، القاهرة، 2002،
[2] - لغة الإعلام وآثارها في تحقيق التنمية اللغوية, عبد العزيز بن عثمان التويجري منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة, إيسيسكو, 1425هـ/2004م
[3] - ينظر: صابر أبو السعود, في نقد النحو العربي, ص73 (نقلا عن طه حسين من محاضرة ألقاها بدمشق سنة 1956)
[4] - الصراع بين القديم والجديد, محمد الكتاني, ص201 202
[5] - لغة الإعلام وآثارها في تحقيق التنمية اللغوية, عبد العزيز بن عثمان التويجري,
6 - ينظر المرجع السابق, ص:
[7] - مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية- بيروت- دط- 2001- ص39.
[8] - نفسه، ص50
[9] - ينظر: في التراث والشعر واللغة، شوقي ضيف ص: 242، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية 100، دار المعارف، القاهرة، 1987.
[10] - محاضرات في قضايا اللغة العربية، صالح بلعيد ص: 301، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة، 1999.
[11] - عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية، ص: 366، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1986 م.
[12] - ينظر: مشكلات حياتنا اللغوية، أمين الخولي ص: 46، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، القاهرة.

المصادر والمراجع

- الصراع بين القديم والجديد, محمد الكتاني, دار الثقافة – الدار البيضاء المملكة المغربية, ط1, 1982
- تأملات في قضايا معاصرة، عبد العزيز بن عثمان التويجري, دار الشروق، القاهرة، 2002،
- في التراث والشعر واللغة، شوقي ضيف (سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية 100)، دار المعارف، القاهرة، 1987.
- في نقد النحو العربي, صابر أبو السعود دار الثقافة للنشر والتوزيع, الضجالة, /دط/1988
- لغة الإعلام وآثارها في تحقيق التنمية اللغوية, عبد العزيز بن عثمان التويجري منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة, إيسيسكو, 1425هـ/2004م
- مجلة المجلس الأعلى للغة العربية, أحمد بن نعمان، مقال: مستقبل اللغة العربية، الجزائر2001 ومقال: رشيد عبد الرحمان العبيدي، حول:موقع العربية بين اللغات البشرية،
- محاضرات في قضايا اللغة العربية، صالح بلعيد، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة، 1999.
- مشكلات حياتنا اللغوية، أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، القاهرة.
- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية- بيروت- دط- 2001-